

ابن حمادوش الجزائري وصناعة أدب الرحلة؛ نسيج الواقع والخيال

Ibn Hamadouche Al-Jazaery and the Travel Literature, the Fabric of Reality and Imagination

د. علجي فؤاد

جامعة أحمد دراية- أدرار (الجزائر)

f78947496@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/01/28

تاريخ الإرسال: 2021/12/25

ملخص:

منذ دأب الإنسان على هذه الأرض وهو يحاول اكتشاف ما يحيط به من أسرارها بقصد التعرف عليها والسيطرة على ما يكتنفه من الحياة، وعرفت المجتمعات عدة فنون مرتبطة بتراثها الأدبي المختلف كالقصة والرواية والمسرحية والشعر، وإذا سلمنا أن فنًا من هذه الفنون يعرض في مضمونه إلى ناحية من نواحي الحياة فإن كذلك فن الرحلة يتعرض إلى جميع نواحي الحياة إذ تتوفر فيها مادة وفيرة مما يهتم المؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلة منبع ثري لمختلف العلوم وهي في مجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة، فالرحلة وهو ينتقل من مكان إلى آخر أثناء رحلته، يهتم بتسجيل ملاحظاته عن مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها عيانًا أو يسمعها من الآخرين، ونجده يعنى بالتفاصيل والجزئيات ويتحرى الدقة والصدق في نقل معلوماته وأخباره فيعطينا بذلك صورة صادقة عن البلد الذي يزوره، من خلال ما يقدمه من معارف جغرافية وتاريخية واجتماعية، ومن هنا تقوم الرحلة على تقديم لوحات مختلفة من الحياة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: ابن حمادوش، أدب الرحلة، الواقع، الخيال.

Abstract:

Since man has been on this earth he tried to discover the secrets that surround him with the intention of getting to know them and controlling what surrounds him. Societies have known several arts related to their different literary heritage such as story, novel, play and poetry, and if we accept that one of these arts is presented in its content to one of the aspects of life, the art of the journey is also exposed to all these aspects of life, as it contains abundant material that concerns the historian, geographer, sociologist, economist, historians of literature, religions and myths. Along his journey, he is interested in recording his observations about different aspects of life that he sees first hand or hears from others, and we find him concerned with details and details and investigates accuracy and honesty in conveying his information and news, thus giving us an honest picture of the country he visits, through what he provides of geographical, historical and social knowledge, and from here on The journey is to present different paintings of human life. The purpose of this research paper is to analyze the journey of Ibn Hamadush from a literary angle, focusing on how to describe this journey, and taking into account the mixing of the elements of imagination and reality in the composition of this journey.

Keywords: Ibn Hamadush, Travel literature, reality, fiction.

مقدمة:

شغلت الدراسات العلمية والنقدية في عالمنا العربي خاصة والغربي عامة بدراسة فنون الأدب المتباينة من قصة طويلة كانت أو قصيرة أو شعر أو مقالة، وما كان هناك لون أدبي لم يحظ إلا بالقليل من الدراسات على الرغم من أنه شهد عددًا كبيرًا من التأليف ألا وهو أدب الرحلة أي ذلك النثر الأدبي الذي يتخذ من الرحلة موضوعًا، أو بمعنى آخر عندما تكتب في شكل أدبي نثري متميز وفي لغة خاصة ومن خلال بناء فني له ملامحه وسماته المتنقلة إذ أن الرحلات كانت من دعائم الفكر العربي في العصور السالفة ولا زالت قائمة إلى حد يومنا هذا.

أدى الرّحالة العرب وغيرهم مهمّة سامية للأجيال القادمة، إذ أسهمت كتاباتهم في نقل كثير من الصور الجميلة والمشاهد المميزة لكثير من البلدان وطبيعتها الجغرافية وظروفها

المعيشية وسلطوا الضوء على تاريخ هذه البلدان وأفكار سكانها وعاداتهم وتقاليدهم فأسهموا في نقل بعض ثقافات الشعوب الأخرى وإثارة الاهتمام بها، وتشجيع المهتمين من العلماء وطلبة العلم على زيارة تلك البلاد للأخذ من معارفها وعلومها.

تضم كتب الرحلات في تراثنا العربي كثيراً من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وهذا ما يدونه صاحب تدوين المشاهد ذلك من جزاء اتصاله المباشر بالطبيعة وبالنفس وبالناس وبالحيوة بمعنى أنه ينقل ما يراه ليضعه بين أيدي الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب.

أمّا فيما يخصّ الوصف فهو يعتبر أهم عنصر في محتوى الرحلة على أتم وجهه، فهو بذلك التصوير للعالم الخارجي أو الداخلي من خلال الألفاظ والعبارات، ووظيفته تكمن في خلق البيئة التي تجري فيها أحداث القصة وتكوين نسيجها.

تحاول هذه الورقات البحثية معرفة خبايا وأسرار الرحلات وما تحمله من مغامرات وعادات بالإضافة إلى تقاليد الشعوب، والإشكالية المطروحة: ما أهم الموضوعات المعالجة في رحلة ابن حمادوش الجزائري؟ وما هي قيمة هذه الرحلة في الأدب العربي؟

1. نشأة أدب الرحلة:

تعد رحلة آدم وحواء أقدم رحلة، وذلك بانتقالهما من بيئة إلى بيئة من الجنة إلى الأرض أما تدوين هذه الرحلات والتحوّلات أو تسجيلها قام بها الإنسان بعد قرون وهو ما أشار إليه شوقي ضيف فقال: "إنّ أولّ رحلة في التاريخ العربي الإسلامي هي رحلة فتوحات العرب الكبرى"⁽¹⁾ وكانت لهؤلاء علاقات خارجية مع العديد من البلدان العربية والأوروبية، وهذا بعد أن خرجوا من جزيرتهم باتجاه المجهول.

ساهم العرب والمسلمون خلال رحلاتهم المتعددة الاتجاهات في فتح بلدان كثيرة فتوحات الأمم في الدين، واتصلت فيما بينها حيث يعدّ عاملاً بارزاً في توسّع وكثرة رحلاتهم قديماً فتنوعت بتنوّع الأسباب والدواعي، كما أشار حسين محمد فهيم إلى قدم الرحلة قائلاً: "أمّا قديمة قدم زمان الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا

وان اختلفت دوافع الرّحيل وتباينت وسائل السّففر، وتنوّعت مادة الرحالة، الذين يصفون الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي ذهبوا إليها"⁽²⁾.

كما هو معروف فإن الرّحلة قديمة قدم زمن البشر، فكانت هناك أسباب ودوافع جعلت تلك الأخيرة تظهر منذ أمد بعيد، فهي تعبر عن حضارات العصور وثقافتهم المختلفة، وما نعود إليه في أدب الرّحلة ما روي في كتب الأحاديث عن هجرة النبي صل الله عليه وسلم، إلى المدينة المنوّرة وهجرة أصحابه رضي الله عنهم إلى الحبشة.

اهتمّ العرب بتأليف رحلاتهم منذ القرن الثالث هجري فاتصفت مؤلفاتهم بالصيغة الجغرافية والتاريخية، تميّز العرب بهذه الأخيرة وأهم من يمثلهم ابن خرداذية من خلال كتابه: المسالك والممالك، ويليه في التأليف للرحلات جماعة من المعاصرين أمثال أحمد بن جعفر اليعقوبي في كتابه: البلدان، والمسعودي في كتابه: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ثم ابن حوقل في كتابه: صورة الأرض ويؤلف بعدهما محمد المقداسي كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، واعتبره أكثر الباحثين من أكبر الجغرافيين العرب آنذاك.

وأهمّ رحلتين جغرافيتين هما: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لأبي عبد الله محمد الإدريسي، بالإضافة إلى مصنفات أخرى له مثل: روض الفرج ونزهة المهج، ويعدّ الإدريسي أكبر جغرافي في بلاد المغرب والأندلس.

عرفت الرّحلة العربية ابتداءً من أواخر القرن السادس هجري تحوّلاً في اتجاه الكتابة من خلال جغرافية البلدان وآثارها الحضارية، بالإضافة إلى التحول في الطّابع الأسلوبى للكتابة إذ أصبح أسلوبها سردياً قصصياً يتّسم بالبساطة والسلاسة، وبهذا انتقلت الرّحلة من الطّابع العلمي إلى الطّابع الأدبي.

وأهمّ من مثّل الاتجاه الأدبي أحسن تمثيل الرّحالة الأندلسي محمد بن جبير في رحلته المسماة: تذكّار الأخبار عن اتفاقات الأسفار التي وصفها حسني محمود حسين: "إنّ هذه الرّحلة تحوي بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مؤرخ أو جغرافي، أو أديب أراد أن يدرس هذه الفترة المهمة من حياة الشرق الإسلامي، وقد رفع بها صاحبها هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية"⁽³⁾.

والملاحظ لحركة التأليف في الرحلات العربية إضافة إلى تحوّل منهج الكتابة وأسلوبه انتقل التأليف ابتداءً من القرن السادس هجري من المشاركة والمعاربة بتفوقهم في أدب الرّحلات واهتموا في مؤلّفاتهم بتدوين أخبار الأدباء والعلماء في كلّ قطر زاووه، ولم يعد المهتمون بطلب العلم يرحلون إلى مصر والشام والعراق كما كانوا قديماً بل أصبحوا يتوجّهون إلى إيطاليا وفرنسا وأمريكا.

2. أهمية أدب الرحلة:

لكلّ عملٍ قيمة سواء كان أدبيّاً أو علميّاً، وبفضل تلك الأهمية يسمو إلى مقام التّجّاح والأدبيّة، وتكمن تلك الفائدة فيما يقدمه المؤلّف للقارئ من معلومات وثقافة واسعة، والمعروف عن الرّحلات أنّها فنٌّ أدبي، مما يعني أنّ لها أهمية كبيرة في تنمية درجة الفكر والثقافة لدى الباحث والقارئ والمؤرخ وغيرهم، وتكمن أهمية أدب الرحلة في النقاط الآتية:

- الرّحلة عمل أدبي يبيّن المستوى الفكري لدى الكاتب وبذلك يضيء طرق القارئ المواظب على المطالعة، كما أنّها تصور لنا بعض ملامح حضارة العصر الذي عاشوا فيه وتصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان.
- تبرز قيمة الرّحلات كمصدر لوصف الثقافات الإنسانية ولرصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في المجتمع، لذا كان لها قيمة علمية من حيث أنّها أكثر المدارس تنقيحاً للإنسان وإثراءً لفكره، وتأمّلاته عن نفسه وعن الآخرين.
- تتوفر على مادة علمية مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلة منبع ثري لمختلف العلوم، فهي تعتبر ذات قيمة معرفية مهمة كونها تعبر عن التراث إن صحّ التعبير، أو تعبر عن مصادر ثرية ومنابع مختلفة لمختلف العلوم والحضارات.
- تعتبر الرّحلة سجلاً حقيقياً لمختلف مظاهر الحياة، ومفاهيم أهلها على مر العصور حيث يقوم الرحالة أثناء رحلته بملاحظة مظاهر الحياة المختلفة، وينقلها في رحلته كما أشار إليها حسني محمود حسين: "ولا شك أنّ الرحالين يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظاتهم، وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام كما يختلفون أيضاً في درجة صدقهم وأمانتهم وفي تنوع فهمهم للأمر تحت الظروف المعغيرة التي يخضعون لها"⁽⁴⁾.

3. أدب الرحلة في الجزائر:

لقد أسهم الجزائريون في أدب الرحلة مساهمة واضحة ولاسيما في القرن الثامن عشر وكانت بعض رحلاتهم إلى الحج وبذلك كانت رحلات حجازية، وبعضها كان لطلب العلم وبذلك كانت رحلات علمية.

ولعلّ من أقدم الرحلات التي تنسب ما قبل العهد العثماني هي رحلة التوجاني التلمساني كما أنّ أحمد المقرّي قد ساق في أزهار الرياض، رحلة لجده محمد المقرّي التلمساني المعروف بأنه أستاذ ابن خلدون، والرحلة في الأدب الجزائري تنقسم إلى قسمين:

أ- الرحلة العلمية:

من أقدمها رحلة عاشور بن موسى القسنطيني تحدث فيها عن طلبه العلم في عدة بلدان ومن الرحلات المكتوبة غير الحجازية رحلة عبد الرزاق بن حمادوش، فهي رحلة قام بها المؤلف لطلب العلم والتجارة من مدينة الجزائر إلى تطوان فمكناس ثم فاس وقد وصف الحياة السياسية والاقتصادية في المغرب، وسجل ملاحظاته وإجازات العلماء له وأحكامه في رحلته.

ولعلّ آخر هذه الرحلات رحلة زين الدين الأغواطي والتي كتبها في أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر استجابة لطلب مساعد القنصل الأمريكي بالجزائر وليام هودسون وقد تحدث فيها عن الصحراء وقراها، وواحاتها وعاداتها وتقاليدها وذكر توات وتحدث عن جزء من الجزيرة العربية وقابس.

ب- الرحلة الحجازية:

توجد رحلات كثيرة نذكر منها: رحلة البوني المسماة: الروضة الشهية في الرحلة الحجازية ولكنها من الرحلات الضائعة ولابن عمار رحلة أخرى تسمى: نحلة اللبيب في أخبار عن الحبيب ومن أشهر الرحلات الحجازية رحلة الورتلاني وقد تضمنت رحلته نبذة عن حياته وتحليلاً لما رآه في الجزيرة العربية، ورحلته تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي، فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال.

أمّا في العهد الاستعماري فقد وظّف المستعمر الغاشم الرحلة لتحسين صورته وتحقيق أغراضه الاستعمارية، وتتضمن رحلتان اتجه صاحبها من الجزائر إلى باريس برعاية الحكام الفرنسيين الرحلة الأولى رحلة سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسا أو الرحلة الصيامية وكانت سنة 1852م، أما الرحلة الثانية فصاحبها أحمد بن قادة المسماة: الرحلة القادية في مدح فرنسا وتصبير أهل البادية وقد برع الرحالتان في تمجيد فرنسا، ووصفوها وصفًا يصل لحد الافتنان والإعجاب، أما في القرن العشرين فقد نمت الرحلة وتطورت وانفتحت على الخارج أيضًا بوجه سياسي نضالي وقد فرض على الرحالة الدخول في معركة ذات جبهات مختلفة أولهما مع المستعمر وثانيهما مع مظاهر التخلف والامية والفقر.

لم تعد الرحلة أدب زهات خالصة ولا معلومات تاريخية بحتة بل غدت ضررًا من النضال السياسي والاجتماعي والثقافي لتغيير الواقع والتعريف بحق الوطن والمواطن في الأمن والحرية والاستقلال ونذكر هنا رحلات محمد البشير الإبراهيمي إلى الأقطار الإسلامية ورحلات العديد من الأدباء الجزائريين المحدثين.

4. ابن حمادوش حياته وعصره:

عاش عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري خلال القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي، ولد في مدينة الجزائر سنة 1695م وتوفي بعد تسعين حولا في مكان وتاريخ مجهولين، فقد ابن حمادوش والده وهو صغير فكفله عمه الذي زوجه ابنته وأسكنه منزله.

درس ابن حمادوش على طريقة عصره فتلقى مبادئ علوم الدين واللغة، بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء القرية، ولكن مرحلة تعلمه الأولى لا تزال مجهولة والظاهر أن صاحب الرحلة تحدث عن مرحلة تعلمه الأولى في الجزء الأول من رحلته وهو مفقود الآن.

أما المرحلة الثانية من طلبه للعلم تعكس اهتمامه الشديد بكتب التراث العلمي العربي واليوناني، ويذكر ابن حمادوش في رحلته أنه قرأ عددًا كبيرًا من الكتب في مختلف الفنون والعلوم كما أورد أيضا أسماء الشيوخ والعلماء الذين تتقّف على أيديهم في الجزائر والمغرب وفي تونس، قرأ في الجزائر على يد الشيخ محمد بن ميمون، ومن قرأ عليهم ابن حمادوش في

المغرب وأجازوه محمد بن عبد السلام البناني وأحمد التطواني وأحمد السرائري ومن تونس تتلمذ على يد الشيخ محمد زيتونة والشيخ محمد الشافعي.

5. البعد الفني في رحلة ابن حمادوش الجزائري:

اعتمد صاحب الرحلة على السرد والوصف معاً في مضمون رحلته، فإذا كان "السرد يشكل أداة الحركة الزمنية في الحكيم، فإنَّ الوصف هو أداة تشكل صورة المكان"⁽⁵⁾ ومما لا شك فيه أن المكان يعتبر "أكثر التصاقاً بحياة الإنسان من الزمان، ذلك أن إدراك الإنسان للمكان إدراك حسي مباشر، حيث يرتبط مع الإنسان طوال حياته، وأن وجود الإنسان لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان، كما أن إحساس الإنسان لا يتحقق إلا من خلال علاقته بالمكان، كما أن إحساس الإنسان بالمكان هو إحساسه بذاته، فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، بل تنبسط خارج الحدود في مكان يمكن أن تتفاعل فيه"⁽⁶⁾.

ابن حمادوش في رحلته كان شديد الإحساس بالبيئة يتفاعل معها بشكل رائع فهو كثيراً ما ينقل لنا إعجابه الشديد بالمروج التي مر بها أثناء تنقلاته في المغرب، يقول مثلاً: "وبتنا في أول المرج الطويل، الذي به طير الماء من غر وبط وغيره كثير لا قليل، ومنه قطعنا وادي سب، الذي كل يجوزه بالقارب حسب كأنه نيل مصر، أو قطعة من البحر"⁽⁷⁾.

لاحظ ابن حمادوش كثرة الطيور في هذا المرج من بط وغر وغيره، كما لاحظ أيضاً وادي سب يقطعه الناس بالقوارب فقط لعمق مائه، فشبّهه بالنيل أو بالبحر.

المكان في الرحلة ليس مجرد إطار للأحداث والشخصيات فقط، وإنما هو عنصر مهم وفعال باعتباره مرتبطاً بالأحداث التي تم سردها، كما نلاحظ أيضاً أن المكان يشكل "مجموعة من الخطوط المتشابكة المعقدة التي يرجع تعقيدها، في الواقع إلى تشابه المرجعيات لديه وهي مرجعيات تتيح مساحة جغرافية شاسعة ومتنوعة لتنوع مصادرها وإمكاناتها والمعروف أن الفضاء المكاني لا يأتي في الغالب منفصلاً عن دلالاته الحضارية"⁽⁸⁾.

الظاهر أن المغرب استحوذ على اهتمام ابن حمادوش، حيث نجد كثير الحركة والتنقل فيه وبتصاله المباشر بالطبيعة والناس لم يترك شيئاً شاهده أو لاحظته فيه، إلا وتحدث عنه وقام بوصفه.

وصف ابن حمادوش الأحداث التي عاشها والشخصيات التي تعامل معها فوصف الحركات والألبسة والعادات والتقاليد، "ولا ينهض الوصف بوظيفته السردية حتى يشمل المناظر الطبيعية والأخبار الخارجية: كالريح والمطر والشمس والقمر والليل وما فيه ظلام ووصف الأمكنة الحضرية كالشوارع والأحياء والمساحات الخضراء ووصف الأمكنة الطبيعية كالجبال والسهول وغيرها"⁽⁹⁾.

يقول مثلاً: "خرجت من فاس، فظللنا سائرين إلى آخر النهار فنزلنا في دوار عرب بين واديين يقال له بوشابل ورفعنا من هناك، سرنا النهار كله إلى العشية بل قبل الظهر أو قريب منه، نزلنا تحت بني وريا وهي دشور بتنا على عين مائها عند الصنصاف، ورفعنا منها، وظللنا سائرين إلى وسط جبل يقال له الطليب على عين الدفلة قريب من شجرة بلوط عظيمة تسع مجلس خمسين شخصاً"⁽¹⁰⁾.

ولهذا يجب على الرحالة تحري الدقة والصدق في نقل معلوماته، وهذه بعض النماذج الواردة في الرحلة يقول مثلاً في وصفه لإحدى القرى التي مر بها أثناء تنقله من تطوان متوجّهاً إلى مكناس: "تعدينا على بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدمة البناء نائية الماء ومع أنها كبيرة المنشأ قليلة المشاء، عددت بها ثلاث عشر صومعة سوداء"⁽¹¹⁾.

امتازت الرحلة "بميزة الحديث عن التقاليد والعوائد الاجتماعية، ومواضع الناس في سميت كلامهم ولباسهم ومطعماتهم ومشروباتهم، وذكر المؤلف المأنوس من العادات والنافر الشاذ منها"⁽¹²⁾، يقول مثلاً في وصف عادات الجزائريين وأهل فاس في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: "لقيت الطبايين والعياطين وآلات الطرب كلها في السوق، ذاهبين بأربعة قباب من الشمع كل واحدة من لون، واحدة من لون، إحداها خضراء، وأخرى بيضاء، وأخرى حمراء، والرابعة نسيت لونها، أحف مما يجعل في الجزائر عندنا"⁽¹³⁾.

ويقول في وصف ما لاحظته في فاس: "ومنها أن رجالها لا يتعممون إلا القليل وأن نساءها لهم عمائم كبار، أما من حرير فثمانية عشر ذراعاً بذراع آدم المعلوم في الأسواق وأكثر، إما أبيض ونصفه زبيبي ونصفه عكري أو يتعممون بالشاش الهندي، أو بالشقة الجيدة المصري" (14).

بالإضافة إلى وصف الأماكن والأشخاص نجد ابن حمادوش يقدم لنا وصفاً في غاية الدقة للحيوانات التي شاهدها في المغرب، يقول مثلاً في وصفه لطائر الغر: "الغر طائر قدر الدجاج أسود اللون، وبين عينيه غرة بيضاء" (15).

هذه بعض النماذج عن الوصف الوارد في متن الرحلة، فالمؤلف كان لا يترك شيئاً شاهده إلا ووصفه وعلق عليه، ولهذا فالرحلة سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة التي عاشها مؤلفها وهنا تتجلى لنا القيمة العلمية للرحلة، لأن الرحلة ضمن رحلته الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي يمكن أن تهم الباحثين كل بحسب تخصصه.

لقد اعتمد صاحب الرحلة على عنصر الزمن أي سرد الحوادث زمنياً، وهو ما يربط بين أجزاء مضمونها، فالرحلة تفتقر إلى وحدة الموضوع والترابط العضوي.

فالزمن الذي كان يعيشه صاحب الرحلة هو زمن عادي حقيقي، لأنه كان يسرد الأحداث والوقائع كما هي دون مبالغة، بل كان يجهد نفسه في تحري الدقة والصدق كوصفه لوقائع وأسباب ثورة محمد الريفني حاكم تطوان على السلطان مولاي عبد الله، فهو سرد أحداثها وتفصيلها ونتائجها والنهاية التي آلت إليها.

لقد اعتاد صاحب الرحلة أن يؤرخ بالتاريخين الهجري الذي يسميه العربي والميلادي الشرقي أو الفلاحي، ونادراً ما كان يؤرخ بالتاريخ الاسكندري، فالمتفحص لمضمون الرحلة يلاحظ أن سنوات الانتقال التي تشكل أبواب الرحلة وفصولها كانت بالتاريخ العربي.

يقول مثلاً عن ذهابه إلى مكناس انطلاقاً من تطوان: "فدخلت مكناسة عند الزوال من يوم الأحد سادس وعشرون صفر من عام 1156 الموافق عاشر أبريل من سنة 1743 مسيحية"⁽¹⁶⁾.

كما نجد صاحب الرحلة يوظف بعض الشخصيات التراثية، وذلك لأن "المعطيات التراثية تكتسب لوناً خاصاً من القداسة في نفوس الأمة ونوعاً من اللصوق بوجودنا لما للتراث من حضور حي ودائم في وجدان الأمة"⁽¹⁷⁾، ولا غرابة أن نجد ابن حمادوش يفسح المجال في رحلته لهذه الشخصيات "التي تتجاوب معه والتي مرت ذات يوم بنفس التجربة وعانتها كما عاناها هو نفسه"⁽¹⁸⁾.

لَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَصْبِرَ صَابِرٍ *** وَهَذَا الْأَوَانِ دَلِيلُ
 أَلْسُوخِ عَلَيَّ بُعْدِ الدِّيَارِ صَبَابَةَ *** نَوَاحِي التَّكَالِي تَحْسَبُونِي جَمِيلُ
 بُنْيَانُهُ عِنْدِي وَإِيَّيَّ جَارِهَا *** وَفَارَقْتُهَا كَرِهًا فَإِنِّي عَلِيلُ
 فَلَوْ كَانَ طَيْرٌ يَطِيرُ بِبِعْغَيْتِي *** إِلَى دَارِ زَهْرًا بِالْكِتَابِ يَدِيلُ

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الشخصيات هي عبارة عن مؤشرات زمنية استخدمها مؤلف الرحلة لتعميق الفكرة وتوضيحها أكثر، فحين وظف شخصية جميل وبشينة، إنما أراد من وراء ذلك جعل القارئ يتصور الحالة الصعبة التي يعيشها بسبب بعده عن زوجته زهراء.

كما يبدو أن أغلب الأحداث التي وردت في الرحلة قد دارت في زمن الصباح والمساء وحتى الليل، وفي ذلك دلالة أخرى على اهتمامه الشديد بالدقة في تحديد عامل الزمن، ومن أمثلة ذلك: "وكان يوم الأحد أول يوم من صفر فأقمت هناك ليلة الاثنين والثلاثاء والأربعاء، إلى آخر النهار طلع بقية أصحابنا فبتنا ليلة الخميس مهيعين مسافرين لأن سفرنا عند غروب الشمس ليلته إلى أول ساعة من يوم الاثنين التاسع من الشهر المذكور موافق ثاني عشر من مارس دخلنا مرسى الجزائر"⁽¹⁹⁾.

استطاع ابن حمادوش أن يحتوي عنصر الزمن في رحلته من خلال الأهمية الكبيرة التي يوليها له، شأنه في ذلك شأن المؤرخ، فهو لا يترك شيئاً إلا وتحدث عنه.

6. قيمة الرحلة:

رحلة ابن حمادوش في نظر أبي القاسم سعد الله قيمة عظيمة لذلك أقدم على تحقيقها وهي تكمن في كونها جزءا من تراث الجزائر العربي الإسلامي، كتبت في العهد العثماني الذي تميز بالركود والانهطاط، تعتبر هذه الرحلة موروثاً شعبياً كونها من التراث العربي الإسلامي الذي لا زال إلى يومنا هذا يحظى بمكانة مرموقة.

حفلت الرحلة بالمعلومات عن عصر ابن حمادوش سياسياً واجتماعياً وعن معاصريه وأفكارهم وأخلاقهم، وحفلت الرحلة أيضا بمادة غزيرة من أسماء الأماكن وبعض التراكيب والمصطلحات المحلية التي تزيد من قيمتها لدى الباحثين، وفيها مجموعة من أسماء الأعشاب التي كان يدرسها ويتعلم العلاج منها.

لم تكن الرحلات مجرد تجوال في الآفاق هدفها التسجيل الجغرافي ورصد المشاهد وال عمران فحسب، بل كانت تلك الرحلات مجالاً رحباً للنواحي الفنية والجمالية والملاحم الأدبية والأسلوبية والتحليل الدقيق الموسوعي لطبائع الشعوب من وجه آخر.

خاتمة:

تعتبر رحلة ابن حمادوش جزءاً هاماً من تراث الجزائر والمغرب، لأنها كتبت في العهد العثماني بالنظر إلى أن عدد كتب الرحلة الجزائرية ضئيل جداً في هذا العصر، لأن معظمها ضاع، ورحلة ابن حمادوش زحرت بالمعلومات الكثيرة سياسياً وفكرياً واجتماعياً واقتصادياً عن عصر كاتبها ومعاصريه، كما أنها مصدر هام عن حياة المؤلف نفسه، وكاد النسيان يأتي على هذه الشخصية الهامة في تاريخنا الثقافي لولا كتاباته التي جعلت الباحثين يهتمون بها بعد وفاته.

الهوامش والإحالات

- (1) – شوقي ضيف، الرّحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1979م، ص08.
- (2) – حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، رقم 138، الكويت، د.ط، 1989، ص15
- (3) – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009م، ص44.
- (4) – حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص06.
- (5) – حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3 2000م، ص80.
- (6) – نبيلة إبراهيم، فن القصة في النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ص140.
- (7) – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ج2، تح: أبو القاسم سعد الله المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د.ط، 1983م، ص72.
- (8) – ثناء أنس الوجود، قراءات نقدية في القصة المعاصرة، دار قباء، القاهرة، د.ط، 2000م، ص47.
- (9) – عبد المالك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1995م ص256.
- (10) – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص78.
- (11) – المصدر نفسه، ص72.
- (12) – حمد مسعود جبران، فنون النشر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، معج02، دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط1 2004م، ص56.
- (13) – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن الحسب والحسب الحال، ص80.
- (14) – المصدر نفسه، ص94.
- (15) – المصدر نفسه، ص73.
- (16) – المصدر نفسه، ص77.
- (17) – علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، د.ط 1997م، ص16.
- (18) – عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د.ط، 1967م ص307.
- (19) – عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال، ص113.